ظهر حديثا

فى قفص الاتهام للأستاذ خالد الدرة (مطبعة الرشيد — بغداد)

كتيب صغير الحجم فى عشرين ومائة صفحة من القطع الصغير، ألفه مؤلفه «البغدادى» ليصف طائفة من رجالات العراق المعاصرين فى بعض مايدور على ألسنة الناس من أحاديثهم، بأسلوب ساخر مؤلم مسرف فى السخرية والايلام، كأن له عند كل منهم ثأراً لا يجد سبيلا إلى أن يناله إلا «بلسانه»!

على أن المؤلف لم يغفل فى مقدمته عن التنبيه على الدافع الذى حمله على كتابة تلك الفصول بذلك الأسلوب الصريح اللاذع؛ فيقول: «والغريب من أمرى أنى لم أفطن إلى هذه الظاهرة الغريبة فى نفسى التى تدعونى إلى كل هذه السخرية من رجال عصرى، ولكنى أدرك بأنى أسوق هذه الفكاهات بروح مترعة بالألم، مليئة بالرغبة فى إصلاح مافسد، جياشة بالتوق إلى الحرية والانعتاق. فما فوضاى إذن إلا من الفوضى المتفشية فى عصرى... الخ» ثم ينفى أن يكون بينه وبين أحد ممن تناولهم بقلمه خصومة أو ثأر، بل إنه ليزعم أن ليس بينه وبين بعضهم «معرفة»!

ولقد يخيل لبعض من يقرءون هذه الفصول أن الصور المنكرة التى رسمها المؤلف لبعض من تناولهم فى كتابه هى صورهم الحقيقية على ما هم فى أنفسهم أو على ماهم فى أعين مواطنيهم، ولكن المؤلف ينفى هذه أيضاً، فيقول: «ولا يخال القارئ أن ما ورد فى هذا الكتاب من تهجمات مستندة إلى الوثائق الصحيحة، بل هى فى الغالب مقتبسة من أفواه الناس، ولعل بعضها منتوض من الأساس، غير أننى لا أشك بأنها تمثل أحاسيس الجماهير نحو رجالهم...»

إذن فلأى غاية أنشأ المؤلف كتابه هذا مادام لا يقصد إلى تصوير حقيقة، ولا إصلاح فاسد، ولا نيل ثأر؟ أهى السخرية فحسب؟

والمؤلف فيما يصف نفسه — بكل تواضع — محام «فاشل»، وفيما يصفه بعض أصدقائه — فى مقام المداعبة — صحافى فاشل؛ وفيما يصفه البغداديون — فى مقام الاعتراف بمكانته — رئيس «ندوة الزبانية»؛ وهى ندوة أصدقاء كل «زبى» منهم له قلم ولسان ولا يعرف لأحد وقاراً، وكان لهم صحيفة تصدر فى بغداد اسمها «الوادى» كتبوا فى صدرها أنها لسان حال ندوة الزبانية! فهو إذن مذهب جديد فى النقد يقوم به الأستاذ خالد الدرة والزبانية من أصحابه!

والكتاب بضعة فصول، كل فصل منها يصور جلسة محكمة قد انعقدت لتحقيق دعوى تتناول رجلا من رجالات العراق، ويقوم بالدفاع عن المتهم فى كل جلسة منها الأستاذ خالد الدرة نفسه، ثم تنتهى القضية باطلاق المتهم؛ ولكن بأى لسان يدافع هذا المحامى عن موكليه؟

هذا نموذج من دفاعه فى قضية كان المتهم فيها مدير الأوقاف العام بالعراق:

المدعى العام: كيف جاز للمتهم أن يبيع عرصات الأوقاف لأنسبائه بمقدار كبير وبأحسن المواقع فى الشوارع الرئيسية وبأثمان زهيدة؟

المحامى : يروم من وراء ذلك تجميل العاصمة وجعلها على نسق موحد . والأقربون أولى بالمعروف !

المدعى العام : ولكن هؤلاء الأنسباء قد باعوا العرصات بأثمان باهظة إلى غيرهم ، فأى تناسق حدث لبنايات العاصمة وأى تجميل زين قصورها ؟

المحامى [لرئيس المحكمة] : أرى أن للمدعى العام قد خرج عن الصدد ، وكان الواجب عليه فى هذه الحالة أن يقيم الدعوى على الأنسباء لا على موكلى .

وهكذا يدور الحوار ويقوم أساس الدفاع ثم تحكم المحكمة بالبراءة !

وفى الكتاب إلى ذلك عرض طريف لبعض المذاهب السياسية والآراء التى تصطرع اليوم فى رءوس العراقيين ، يتضمنه ذلك الحوار الذى دار فى الجلسة التى انعقدت لمحاكمة جون بول وكان رئيس المحكمة فى تلك الجلسة هو العم سام والمدعى العام ستالين ، وقام المؤلف بدور محامى الدفاع بأسلوبه وعلى طريقته وشبع مما يشتهى هزؤا وسخرية !

وينتهى المؤلف من كتابه فلا ينسى أن يكتب على الغلاف ثبتا بمؤلفاته ، وهى :

١ — المشعوذ (صودر)

٢ — لقتل الضجر (صودر)

٣ — حول المنهج القومى (صودر)

ثم هذا الكتاب ، وأظنه (تحت المصادرة) وكتاب آخر « تحت الطبع » عنوانه « الهاربون من جهنم » .

١٠٠ يوم فوق الانقاض للأستاذ محمد على العريان (مطبعة حلبى بدمنهور)

مؤلف هذا الكتاب شاب مصرى أتم دراسته العالية فى الجامعات الانجليزية ، ثم عاد إلى مصر فاستقر بها بضع سنين ، ثم اختارته وزارة المعارف عضوا فى بعثتها العلمية إلى انجلترا فى العام الماضى ، فذهب إليها ، وهى — فيما يصف — أنقاض وخرائب ، فى الأبنية وفى النفوس ؛ فلم يقض على أرض بريطانيا فى هذه المرة غير مائة يوم ، ثم عاد مريضا مهزولا قد نهكته العلة فى جسده وفى أعصابه ، مما لقى من الجوع والحرمان المادى ، وما لقى من خراب النفوس وفساد الخلق من أثر الحرب المبيدة التى أشرفت ببريطانيا — فيما يرى — على هاوية الدمار واقتربت بها من النهاية المحتومة ، وإن كانت — فيما يعلم الناس — قد انتصرت فى الحرب وظفرت بعدوها فى المعركة الأخيرة !

وهو يصور فى هذا الكتاب الذى بين يدى بعض ما تهيأ له أن يراه — بين الانقاض — فى أثناء إقامته هذه القصيرة فى بلاد الانجليز .

أول ملاحظة يلاحظها القارئ لهذا الكتاب ، أن مؤلفه شاب مصرى قد امتلأت نفسه مرارة وحقداً على بريطانيا التى تغصب بلاده حقها فى السيادة والحرية ؛ فهو لا يكاد ينظر إلى بريطانيا إلا من هذه الزاوية ، ولا يكاد يعرف فيها إلا العدو الغاصب الذى يريد أن يستذل أعرق أمة فى تاريخ البشرية ليتخذ أبناءها عبيدا وخولا . وماذا يمكن أن يرى الناظر من هذه الزاوية إلا أمة من وحوش الناس ليس لها مثل عليا ولا فضائل إنسانية !

قد يكون كل ما وصفه المؤلف فى كتابه من أحوال الانجليز صدقا لا شك فيه ، وقد يكون فيه مبالغة ما ، وقد يكون فيه الصدق والتخييل ، وقد يكون كله مما خيل الهوى

والعصبية لشاب يؤمن بمصريته ، فكان هواه وعصبيته منظار عينيه ، فلم يصف ما هو فى الواقع بل وصف ما أراه منظاره الملون — قد يكون ذلك كله أو بعضه ، ولكنه على أى أحواله كتاب شاب مصرى عربى مسلم ألفه عن بريطانيا فى سنة ١٩٤٦ ، فهو على أى أحواله صادق فيما وصف عن رأى ورؤية ؛ إن لم يكن فى مرأى العين ففى مرآة النفس . والنفس أصدق خبرا من العينين !

ليس هذا الكتاب إذن من الكتب التى تلتمس فيها الجغرافيا أو التاريخ الاجتماعى لبلد من البلاد أو شعب من الناس فى زمن من الأزمان ؛ ولكنه كتاب فريد فى بابه لمن يلتمس العلم بأسباب اليقظة العقلية فى شعب مغلوب على أمره يجاهد للخلاص بروحه ومقوماته النفسية وكيانه الانسانى ، فى أزمة من أزماته السياسية الخانقة !

وليس هو قصة يرويها أو مشاهدات متسلسلة يصفها من حيث ابتدأت إلى حيث انتهت؛ ولكنها صور متباعدة فى الزمان والمكان والحادثة ، قد ضمها إطار واحد لتوحى جميعها إلى ناظرها معنى واحداً هو المعنى الذى أراد المؤلف أن يجعله حقيقة ماثلة فى نفس كل قارئ عربى يريد أن يعرف بريطانيا ، أو هو مقدمات متساوقة جعل المؤلف كل مقدمة منها تمهيداً للمقدمة التى تليها لتؤدى المقدمات جميعها فى الخاتمة إلى النتيجة التى يستيقنها ويؤمن بها عن حقيقة بريطانيا .

والكتاب اثنان وعشرون فصلا فى أكثر من مائتين وستين صفحة . يتحدث المؤلف فى كل فصل منها عن يوم من أيامه أو حادثة من حوادثه منذ اختارته وزارة المعارف المصرية لبعثتها العلمية إلى يوم عودته — فى أسلوب تصويرى بديع فيه عذوبة ورقة ، وفيه جد وفكاهة ، وفيه رأى وقصص ، وفيه طرائف من خير ما يثبته الرحالون فى مذكراتهم عن بعض ما يقع تحت أعينهم من الصور الجديدة أو تنفعل به أنفسهم من المشاهدات والحوادث .

قد يعيب بعض الناقدين على الكاتب أنه لم يتجرد حين أخذ أهبته لكتابة هذه الفصول ليكون فيما يكتبه أقرب إلى الحقيقة الخالصة ؛ ولكن أكبر قيمة لهذا الكتاب فيما يبدو لى هو أن كاتبه لم يتجرد فكان فيه صادق التعبير عن نفسه وعن رأيه وعن الحقيقة التى ينبغى أن يؤمن بها كل مصرى يؤمن بمصريته ويعتز بنسبه فى أهله !

وددت لو حرص كل مبعوث عربى إلى أوربا أو إلى أمريكا على أن تكون فى يده نسخة من هذا الكتاب ، فلعله خير له من كثير مما يحمل من أمتعة السفر وأسباب الرحلة !

رجالات الحجاز للأستاذ إبراهيم هاشم الغلالى (مطبعة دار إحياء الكتب العربية القاهرة)

متى كان الحجاز لأهله من دون سائر الناس ؟

سؤال سألته نفسى وقد وقع بين يدى هذا الكتاب . من ذا يزعم أن محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، وأن أبا بكر وعمر وعليا ومعاوية ومن إليهم — من رجالات الحجاز ؟

إنهم كذلك بحكم المولد والمنشأ والمقام ، ولكن كم مسلماً ، أو كم عربياً ، اليوم وقبل اليوم ومنذ بضعة عشر قرنا قد خطر بباله حين تحضره هذه الأسماء الكريمة أن يسأل نفسه أو يسأل غيره عن وطن واحد من

هؤلاء فينسبه إلى الحجاز أو غير الحجاز من بلاد الله ؟

إنهم لأكبر مقاما وإن وطنهم لأوسع أفقا وأرحب جانبا من أن يذكر أو يذكر واحد منهم منسوبا إلى بلد . ولكن الأديب الحجازى ابراهيم الفلالى يأبى إلا أن يضيق الحلقة ، فيحاول كتابا يتحدث فيه عن رجالات الحجاز ، فيذكر منهم محمد بن عبد الله وأبا بكر وعمر وعثمان وعليا والحسن ومعاوية ومن شاء أن يذكر من الأسماء . . .

عاطفة الوطن المحلى أوحت إليه أن يكاثر كما يكاثر كل وطنى فى كل وطن بالأبطال من أهل بلده ؛ ولكن الحجاز وطن لكل مسلم ، ومحمد بن عبد الله والصفوة من أصحابه مواطنون لكل مسلم ولكل عربي فى بلده ، بل هم السادة فى كل بلد عربى وبكل أرض يذكر فيها اسم الله . فهل أصاب الأديب الحجازى هدفاً حين حجر الواسع وضيق الرقعة الفسيحة أم تراه لم يبلغ غرضاً ؟

إن للحجاز منذ قرون كيانه السياسى المتميز بحدوده ، فلماذا لم يخطر على بال أحد من أهل الحجاز منذ قرون أن يحاول فخراً محلياً بمثل ذلك ؟ أرأيت لو أن كورسيكا أرادت أن تباهى سائر فرنسا بأن منها نابليون بونابرت وأنه رجلها ، أتكون قد مجدت البطل الفرنسى العظم حين أرادت أن يكون لها دون غيرها مجده !

ولكنها عاطفة مشكورة على كل حال ؛ لأنها من دلائل اليقظة القومية التى تلتمس المجد بأسبابه وبغير أسبابه !

وأدع هذه ، فلعل الخطأ كله فى عنوان الكتاب ، أو فى إطار الصورة لا فى الصورة نفسها ؛ فانه فى مجموعه كتاب يستحق أن يقرأ وأن يجد فيه قارئه تاريخاً وفناً وأسلوبا من أساليب التعريف بالخالدين فى تاريخ الأمة العربية حقيقاً بالتنويه والاشادة .

وهو إذن كتاب أدب وفن وتاريخ ، يتناول طائفة من رجالات العرب ، يؤلفه شاب عربى حجازى له اطلاع وبيان وفكر ، وبين جنبيه قلب يخفق بحب بلاده . وقد غاص المؤلف فى بطون الكتب التاريخية باحثاً منقباً يتتبع أبطال العرب ممن نشأوا فى الحجاز ، فجلا صورهم جلاء يستحق الاعجاب . ولم يلتزم فيمن جلا صورهم من هؤلاء الأبطال ترتيب التاريخ ولا خصائص الرجال ؛ إذ كان كل ما يعنيه أن يعرض صوراً حجازية مشرقة يحاول بها أن يثبت أن فى الحجاز رجالا ، وهى حقيقة قطعية الثبوت لم ينكرها أحد قط ولا ينكرها أحد اليوم ؛ وآيتها هذا الدين وهذه اللغة وذلك التاريخ الذى يتغنى بأمجاده اليوم أربعمائة مليون مسلم بين شرق الأرض وغربها ؛ ثم هذه النهضة الأدبية النشيطة بين شباب الحجاز والتى تبشر بالخير القريب إن شاء الله !

محمد سعيد العمودى